الفصل الثّامن عشر

الاهتمام بالمستقبل وبثمار العُمر والحذر من الغفلة

البحث الأول:

المستقبل ونظرة الإنسان إليه

لا بدّ من نظرةٍ إلى المستقبل، نظرةَ أملٍ مشرق متفائلٍ بالخيراتِ. . فالإنسان بفطرته مشدودٌ إلى المستقبل، لا يستطيع أن يغفله أو يجعله من المُهملات، وكما رُزِق الإنسان ذاكرة تربطه بالماضي وما فيه، رُزِق أيضاً مخيلة تصور له المستقبل وما يتوقع فيه. ومن خصائص المستقبل أنّه غيب مجهول، لا يعرف أحدٌ ماذا يُخبّىء في صدره من أسرار، وماذا يضمر له من خير أو شرٍّ؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[1]. ومن خصائصه: أنّ كلَّ آتٍ فيه قريب، مهما ظن المرء أنّه بعيد أو متراخ، ولهذا قيل: إنّ مع اليوم غداً، وإنّ غداً لناظره قريب، وقال الله تعالى في القرآن: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[2].

والعاقل هو من يأخذ أهبته للمستقبل، ويتهيّأ للأمر قبل وقوعه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[3].

والذين يظنون أنّ الدّين يعلق الإنسان بالماضي يُخطئون فهم جوهر الدّين وحقيقته.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الحشر، الآية: ١٨.

obeikandl.com

إنّ مهمة الدّين الكبرى هي إعداد الإنسان لحياة الخلود، أي: إعداده للمستقبل، لدارٍ هي خيرٌ وأبقَى من هذه الدار.

فالنّظرة المستقبلية أساسية في أصل الدّين.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إنّ العبدَ بينَ مخافتين: بينَ أجل قد مضَى لا يَدْرِي ما الله صانعٌ فيه، وأجلٍ قد بقي لا يَدْري ما الله قاضٍ فيه. فليأخذِ العبدُ من نفسِهِ لنفسهِ، ومن دنياهُ لآخرتِهِ، ومن الشّبيبة قبل الهرم، فوالذي نفسي بيده، ما بعدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ، وما بعد الدنيا من دار إلّا الجنّة أو النّار**»[1].

وليس معنى هذا أنّ الإنسان المتديّن لا يهتم إلّا بمستقبله الأخروي، مُغْفِلاً مستقبلَهُ الدّنيويّ.. كلا.. فالمسلم قد علَّمَهُ الإسلامُ أن يحتاط لغدهِ، ويعدَّ لهُ عُدَّتَهُ، ويأخذَ حذرَهُ، ويتّخذَ الأسباب المعينة له، وسواء أكان ذلك في أمور الدّين أم أمور الدّنيا.

وإذا كان الرّسول ﷺ هو القدوةَ العُلْيَا للمؤمنين، فنحنُ نجدُهُ يبحثُ عن مستقبل دعوتهِ حين بايَعَ الأوسَ والخزرجَ، وفكّر في أمرِ الهجرة، سعياً وراءَ قاعدةٍ صلبة لإقامة شريعة الإسلام ومجتمع الإسلام.

وهل كانت بيعة العقبة الأُولى ثم الثّانية، ثم الإعداد للهجرة إلى يثرب إلّا عملاً دؤوباً، وتخطيطاً محكماً لمستقبل الإسلام؟!.

وفي أمور الدنيا نجدُهُ ﷺ يدّخِرُ لأهله قُوتَ سنةٍ، ولا يرى في ذلك مُنَافاةً للتّوكّل على الله، لأنّه لا يتنافَى مع الأخذِ بالأسباب.

وهكذا يُعلّمنا رسول الله ﷺ كيف نجمع بين الدّين والدنيا.

---

(١) تفسير القرطبي، ج ١٨/١١٦.

البحث الثاني:

عُمْر الإسلام بينَ الماضي والحاضر

الوقتُ أو الزّمنُ الذي يعيش فيه الإنسانُ ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ماضٍ، وحاضرٍ، ومستقبلٍ، أو الأمس واليوم والغد.

والنّاسُ في علاقتهم بالزّمن أو الوقت في أجزائه هذه عدّة أصناف يقفون عادة بينَ طرفي الإفراط والتّفريط.

فهناك عبيد الماضي، وبجوارهم عبّاد الحاضر، وإلى جانبهم سدنة المستقبل.

وهناك المعتدِلُون المُتَوازِنُون، الذين يعطون لكلٍّ منه حقَّهُ، بلا طغيان ولا إخسار، وقليلٌ ما هم!.

المتعلّقون بالماضي:

فمن النّاس من لا يكادون يعرفون من الزّمن إلّا الأمس، فهُمْ يعيشون في الماضي وحده، لا يشعرون بغيره، ولا يهتمُّون بسواه من يومٍ مشهودٍ، أو غدٍ منشودٍ، سواء كان هذا ماضيهم الشخصي شأن «الرومانسيين» الهائمين، أم ماضِيَ أُسَرِهم وآبائِهم، أو ماضِيَ أقوامِهم وأُمَمِهم، شأن الغُلاَة من «العِظَاميين»، و«التّراثيّين»!؟.

ولهذا الصّنف من عبيد الماضي عدّة صورٍ يظهرُ فيها:

١ - صورة من يحيا مفاخراً به، معتزّاً بأمجاده، دون أن يضيف جديداً أو يُقدّم مزيداً، يصلُ حاضِرَهُ بماضيهِ، ويومِهِ بأمْسِهِ، فهو دائماً يقول: كُنّا وكان آباؤُنَا وأجدادُنَا، ولا يجدُ ما يقولُ عنه: فنحنُ فعلنَا كذا، أو أنجزنا كذا، أو قدّمنا كذا، فهم هائمون في الوهم!؟. ولمثل هؤلاء يقول المتنبّي:

لئن فخرتَ بآباءٍ ذَوِي حَسَبٍ لقدْ صدقتَ، ولكن بئس ما وَلَدُوا

وقال الآخر:

كُنِ ابْنَ مَنْ شِئْتَ واكْتَسِبْ أدَباً يُغنيكَ محمُودُهُ عن النَّسَبِ
إنّ الفتى مَنْ يقولُ: ها أنَذَا ليس الفتَى مَنْ يقولُ: كانَ أبي

إنّ الاعتزاز بأمجاد الماضي، ومآثر الأجداد، أمر محمودٌ، إذا دفع إلى إكمال ما بدؤوا، والاقتداء بهم في خيرِ ما فعلُوا، ولكن الوقوف عند التّغني بذلك لونٌ من السّلبية لا يُقدّم في بناء الأُمم شيئاً.

٢ - ويقرب من هذه الصّورة: صورةُ «التّراثيّين» الذين يدعُونَ إلى تقديس التّراث بكل ما فيه من صوابٍ وخطإٍ وجدٍّ وهزلٍ، معتبرين أنّ الماضي دائماً خيرٌ من الحاضر، وأن الأول لم يترك للآخِرِ شيئاً، وأنّه ليس في الإمكان أبدع ممّا كان.

مع أنّ الواجبَ هنا: تحديد مفهوم التّراث، ثم تقويمه بعد ذلك. فمن النّاس من يدخل في مفهوم التّراث عندنا نحنُ المسلمين: القرآن والسّنّة، وهذا ما لا خيارَ لنا في الالتزام به، بموجب عقد الإيمان ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1].

فالجانب الإلٰهي من التّراث لا يُوضع موضع الاختبار أو التّردّد. أمّا الجانب البشري، فهو الذي يُوضع في الغربال، ويُميّز منه ما يُقبلُ وما يُرَدُّ، فمنه ما له صفة المحلية لا العالمية، فهو يحمل طابع موضعه الذي ظهر فيه، ولا يصلح لمكان آخر، ومنه ما يحمل طابع زمنهِ ولا يصلحُ لزمنٍ آخر، وهكذا.

ومن هنا كانت الدّعوة إلى «المعاصرة» بجوار دعوة «الأصالة» أو المحافظة على التّراث، والصّحيح أنّ المعاصر يجب ألّا تغفل عن الأصالة.

٣ - وهناك صورةُ مَنْ يعيشُ في الماضي، نادماً عليه، متحسّراً على ما فاته منه، مردِّداً دائماً عبارات التّحسّر والتّمنّي، ليتني فعلتُ وليتني تركت، ولو كنت فعلت كذا لكان كذا، ولو أني قدمت هذا وأخّرتُ ذاك، لكان كذا وكان كذا.

وهذا اللون من التّفكير أو الشعور، يلفُّ الإنسانَ بمسوح الكآبة النّفسية ويحييه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

في نَكَدٍ وقَلَقٍ لا مُبرّرَ له، ولا فائدةَ منه، ويُصيبه بالسلبية المدمّرة، ولهذا قيل: الاشتغال بفوات وقتٍ ماضٍ تضييع وقتٍ ثانٍ!! وإنّ كلمة «لو كان كذا لكان كذا» من عمل الشيطان!.

ولا غَرْوَ أنْ أنكرَ القرآنُ والسّنّةُ هذا السلوك، يقولُ الله تعالى بعد ما أصاب المسلمين في غزوة أُحُدٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

وقال الرّسُولُ الكريمُ ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احْرِصْ على ما ينفعُكَ واسْتَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ، ولا تَقُلْ: لو أنّي فعلتُ كذا لكان كذا، ولكنْ قُلْ: قَدَّرَ الله وما شاءَ فَعَلَ، فإنّ «لو» تفتحُ عمل الشّيطان**»[2].

فالإيمان بقدر الله تعالى يدخل هنا عاملاً إيجابياً مؤثّراً، ينتزع الإنسان من سلبيّةِ «لو» و«ليتَ» ونحوها إلى إيجابيّة العمل والبناء للمستقبل.

وفي هذا تغنى الشّعراء، وإنّ من الشعر لحكمة.

ليتَ شعري، وأينَ منّي ليتَ؟ إنّ ليتاً، وإنّ لوّاً عناءُ
وليس براجعٍ ما فاتَ منّي! بلهفٍ ولا بـ ليتَ، ولا، لو أنّي
سبقتْ مقاديرُ الإلٰهِ وحُكْمُهُ فأرِحْ فُؤَادَكَ مِنْ لعلّ ومن لو

مواجهة المستقبل بالأماني والأحلام:

ويُقابل هذا الموقف السّلبي من المستقبل، موقف اليأس والقنوط، موقف سلبي مثله، وهو مواجهة المستقبل بالأماني المجرَّدَةِ، والأحلام الفارغة لا بالعمل والتّخطيط والتركيز.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.
(٢) صحيح مسلم برقم ١٦٦٤.

والأماني لا تبني مجداً، ولا تُحقّق أملاً، بل هي كما قال كعب بن زُهير: إنّ الأماني والأحلام تضليلٌ.

قال رجل لابن سيرين: إنّي رأيتُ في منامي أنّي أسبح في غير ماءٍ، وأطيرُ بغير جناح! فما تفسيرُ هذه الرؤيا؟ فقال له: أنتَ رجلٌ كثيرُ الأماني والأحلام!!.

وقال عليُّ بنُ أبي طالب لابنه: إيّاك والاتّكال على المُنَى، فإنّها بضائع النُّوكيّ أي: الحمقى!. وقال الشّاعر:

أعلّلُ بالمُنَى قلبي لعلي ... أروح بالأماني الهمّ عني
واعلمُ أنّ وصلك لا يُرجّى ... ولكن لا أقل من التّمنّي

وقال آخرُ:

ولا تكُنْ عبد المُنَى، فالمُنَى ... رؤوس أموالِ المفاليسِ

ولا غَرْوَ أنْ أنكر القرآنُ على أهل الكتاب من اليهود والنّصارى تعلّقهم بالأماني في دخول الجنة بغير أسبابها، وموجباتها من الإيمان والعمل.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

ولم يقف القرآن عند حدّ الإنكار على أهل الكتاب، بل أشركَ معهم المسلمين ممن حذَا حَذْوَهم ممّن ظنَّ أنّ مجرّدَ التّسمّي بالإسلام أو الانتساب إليه، يُنجيه عندَ الله، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[2].

إنّ القرآن يُنكر الاعتمادَ على الأماني، ولكنّه لا ينكر الرّجاء، وفرَّقَ بين

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١١ - ١١٢.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٢٣ - ١٢٤.

الأمرين؛ فالرجاءُ ما قارنَهُ عملٌ، وإلّا فهو أمنيةٌ. ولهذا اعتبر الحديث النّبويّ من العجز والحُمْق اتّباعَ هوَى النّفْس، والجري وراءَ شهواتِها، اتّكالاً على عفو الله تعالى، ومغفرته وسعةِ رحمتهِ مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وفي هذا جاء الحديث: «**الكيّس مَنْ دانَ نَفْسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ، والعاجزُ مَنْ أتْبعَ نفسَهُ هوَاهَا وتمنّى على الله الأماني**»[3].

وقال بعض الصّالحين: طلبُ الجنّة بلا عمل ذنبٌ من الذّنُوب، وارتجاءُ الشّفاعة بلا اتّباعٍ للسُّنّة نوع من الغُرورِ، وارتجاءُ رحمة الله مع المعاصي حُمْقٌ وجهل.

وقال الحسنُ: إنّ قوماً ألهتْهُم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدّنيا ولا حسنةَ لهُمْ، يقول أحدُهم: أُحْسِنُ الظّنّ بربّي! وكذَبَ، لو أحسنَ الظّنَّ لأحسنَ العملَ له، وتلا قولَهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[4].

وكان يقول أيضاً: يا أيُّها النّاسُ، اتّقُوا هذه الأماني، فإنّها أودية النّوكي فيحلون فيها. فوالله ما آتَى الله عبداً بأمنيّةٍ خيراً في الدنيا ولا في الآخرة.

لا بدّ من نظرة إلى الماضي:

للاعتبار بأحداثه، والاتّعاظ بمصاير أممه، وبسنن الله فيهم فهو وعاء الأحداث، ومخزن العِبر.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٣) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه، وفي سنده ضعف، وصححه الحاكم، فردّه عليه الذهبي، انظر ضعيف الجامع الصغير برقم ٤٣٠٥.
(٤) سورة فصّلت، الآية: ٢٣.

ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[1] ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[2].

إنّ لحظة المحاسبة للنّفْس لتعدّ من لحظات الارتقاء الإنساني، حيث يجرد الإنسان من عقله حاكماً على شهوته، ومن ضميره حاكماً على هواه، ويجعل الإنسان المؤمن من إيمانه شرطياً يُراقب ومفتشاً يُحاسب، وقاضياً يحكم وبهذا يرتقي الإنسان من حالة [النّفسُ الأمّارةُ بالسّوء] إلى حالة [النّفْس اللّوّامة] التي تلُوم صاحبَها إذا أقدمتْ على محظورٍ، أو قصّرت في فعل مأمورٍ.

وفي الحديث الذي ذكرناه من قبلُ: «**ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات، ومنها: ساعةٌ يُحاسِبُ فيها نفسه**».

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أنْ تُحاسَبُوا، وزِنُوا أعمالكُمْ قَبْلَ أنْ تُوزَنَ عليكُمْ».

وكان رضي الله عنه يضرب قدميه بالدّرة إذا جنَّ اللّيل، ويقول لنفسه: ماذا عملتِ اليومَ؟.

ويقول التابعي الجليل ميمونُ بنُ مهران: التّقيُّ أشدُّ حساباً لنفسه من سلطانٍ غاشمٍ، ومن شريكٍ شحيحٍ.

ويقول الحسَنُ: المؤمن قَوَّامٌ على نفسه، يُحاسِبُها لله. وإنّما خفَّ الحسابُ على قومٍ حاسَبُوا أنْفُسَهم في الدنيا، وإنّما شقَّ الحساب يومَ القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة! ثم فسّرَ المحاسبةَ فقال: إنّ المؤمنَ يفجؤُهُ الشيءُ يُعجبُهُ فيقول: والله إنّك لتعجبني وإنّك من حاجتي، ولكن هيهاتَ حيل بيني وبينَكَ! وهذا حساب قبل العمل.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

وهذا تربيةٌ راقية للنّفس، يسمُو بها صاحبها إلى أعلى درجات الفضل والإحسان والبِرّ والأخلاق والآداب[١].

البحث الثالث:

طول العمر وثمارهُ اليانعة

ممّا لاشكَّ فيه أنّ الإنسان بفطرته يُحبُّ الحياةَ، ويُحب أن يطولَ عُمرُهُ فيها، بلْ يُحب الخلودَ فيها لو استطاعَ! ومن باب هذه الغريزة غريزة - حبّ الخلُود - دخل إبليس إلى أبي البشر آدم، ودَلَّهُ بغُرورهِ ليأكلَ من الشجرة التي نُهِيَ عنها ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[٢]، فغرَّرَ به بهذه الأمنية الغريزية فاغترّ به.

والدِّينُ نفسُهُ يعتبرُ طولَ العُمرِ نعمةً إذا استخدم في نصرةِ الحقّ، وعملِ الخير.

سئل النّبيُّ ﷺ: أيُّ النّاسِ أفضلُ؟ فقال: «**مَنْ طَالَ عُمُرهُ وحَسُنَ عملُهُ**»[٣].

ولكن ممّا لاشكَّ فيه أيضاً، أنّ الموت قد نغّصَ للنّاس الحياة، فكثيراً ما اختطفَ الشّابَ في ريعان شبابه، والعروسَ في أوّل أيّام عُرسهِ، والوحيدَ المدلّل من بين يديْ أهلهِ، والغنيَّ المرفّه من أحضان نعمته ورفاهيّتِهِ، والحاكمَ المرهوبَ من بين حرسهِ وحشمِهِ، ولهذا سمّي «هازمُ اللّذات» و«مُفرّق الجماعات».

وإذا كان الموت خاتمة المطاف ونهاية الحياة، فالعمر لا ريبَ جدّ قصير مهما طالَ بالإنسان الأمل، ومدَّ لهُ في الأجل، إنّما هو أيامٌ معدودة، وأنفاسٌ محدودة، يقطعها الموت بغير استئذان، ويترك صاحبها في خبر «كان».

---

(١) من كتاب الوقت في حياة المسلم للدكتور القرضاوي.

(٢) سورة طٰه، الآية: ١٢٠.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والطبراني بإسناد صحيح والحاكم والبيهقي في الزهد وغيره كما في الترغيب للمنذري.

حكمُ المنيّة في البريّةِ جارٍ ما هذهِ الدّنيا بدارِ قَرارِ
بينَا يُرى الإنسان فيها مخبراً حتى يُرى خبراً من الأخبارِ

وفي الأثر: «عِشْ ما شئت فإنّكَ ميّتٌ، وأحْبِبْ مَنْ شئتَ فإنّكَ مفارقُهُ، واعملْ ما شئتَ فإنّك مُجْزَى بهِ ومسؤولٌ عنه»[1]!.

وصدق أبو العتاهية حيث قال:

بينَ عينيْ كلِّ حيٍّ عَلَمُ المَوْتِ يَلُوحُ
نحْ على نفسِكَ يا مسكينُ إنْ كنتَ تنوحُ
لتموتن وإن عُمّرْ تَ ما عُمِّرَ نوحُ!!

ولم يستطع الطب الذي وصل إلى زرع قلب مكان قلب، ولا العلم الذي وصل بالإنسان إلى سطح القمر، أن يقاوم الهرم، ويُعيد للشّيخ الشّباب بعد أن رُدَّ إلى أرذل العُمرِ، وصدَقَ رسول الله ﷺ حيث قال: «ما أنزلَ الله داءً إلّا أنزلَ له شفاءً، إلّا الهَرَمَ»[2].

وإذا كان عمرُ الإنسان محدوداً بهذه الصّورة، فأنّى له أن يُطيلَهُ، وكيفَ يستطيعُ؟!.

والحقّ أنّ العمر الحقيقي للإنسان ليس هو السّنين التي يقضيها من يوم الولادة إلى يوم الوفاة فحسب بل عمره الحقيقي بقدر ما يُكتب له في «رصيدِهِ» عندَ الله من عملِ الصّالحات وفعل الخيرات. ولا غَرْوَ أنْ تجدَ إنساناً يعمّر أكثر من مائة سنة، ولكن رصيده من تقوى الله ونفع عباده صِفْرٌ أو ما دون الصّفر، أي: أن رصيده مدين، إذا تحدثنا بلغة المصارف.

وقد يموت إنسانٌ آخر شاباً، لكن رصيده في سنيِّهِ القلائل بعد سنّ التّكليف حافل عامر بجلائل الأعمال.

يقول صاحب الحكم: رُبّ عمرٍ اتسعت آمادُهُ، وقلّت أمدادُهُ، وربّ عمر قليلة

(١) رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» من حديث عليّ.
(٢) صحيح البخاري برقم ٥٦٧٨.

آمادُهُ، كثيرةٌ أمدادُهُ، مَنْ بُورِكَ له في عمرهِ أدْرَكَ في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة.

وإذاً يستطيع المرء أن يُطيل عمره بمقدار ما يُوفق إليه من عبادة الله تعالى، والإحسان إلى خلقه، وكلما توافر لعمله الإخلاص والإتقان، كان فضله وأجره أعظم عندَ الله تعالى.

العُمرُ الثّاني للإنسان؛ الثّنَاءُ عليه بعدَ موته:

وكذلك يستطيع الإنسان الذي رُزِق التوفيق في إنفاق وقته أن يطيل عمره، ويمدّ حياته إلى ما شاء الله بعد موته، فيحيا وهو ميتٌ، ويُؤدّي رسالة للأحياء وهو مقبور بما ترك من آثارٍ نافعةٍ. وإنّما يكون ذلك إذا ترك وراءَهُ ما ينتفع النّاسُ به بعدَهُ مِن علم نافع، أو عمل صالح، أو أثر طيّب أو سُنّة حسنة يُقتدى بها، أو مؤسسة خيريّة ظلّت تُؤتي ثمارَهَا من بعده، أو ذرية صالحة أحسن تربيتها فكانت امتداداً لحياته وحُسْن سيرتهِ، وفي هذا روى مسلم من حديث أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ: «**إذا ماتَ ابْنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلّا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعُو لَهُ**»[(١)]. وفي حديث آخر تضمّن تفصيلاً لهذه الثلاث: «**إنّ ممّا يلحقُ المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علماً علّمه ونشرَهُ، أو ولداً صالحاً أو مصحفاً ورّثَهُ، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابنِ السبيل بنَاهُ، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موته**»[(٢)].

وأخرج مسلم[(٣)] في صحيحه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من سنّ سُنّةً حسنةً فلَهُ أجْرُها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**». وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم برقم ١٦٣١.
(٢) رواه ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، سنن ابن ماجه برقم ١٩٨.
(٣) برقم ١٠١٧.
(٤) سورة يَس، الآية: ١٢.

وقال الله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾[1].

والنّاس متفقون على أنّ الذكر الحسنَ الذي يتركه الإنسان بعد موتهِ يُعتبر عُمراً آخر له: عُمراً غير محدودٍ بعد عمرهِ المحدود. يقول المتنبي:

ذِكْرُ الفَتَى عُمرُهُ الثّاني، وحاجتُهُ ما قَاتَهُ، وفضولُ العيش أشغال

ويقتبس شوقي هذا المعنى فيصوغه ويُقدّم له بهذه الصورة الحيّة، حيث يقول في رثاء مصطفى كامل:

دقاتُ قلبُ المرءِ قائلةٌ له إنّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ!
فارفعْ لنفسِكَ بعد موتِكَ ذكرَها فالذّكْرُ للإنسان عُمرٌ ثانِ

ولا عجب أن كان من دعاء أبي الأنبياء خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾[2]. وفَرْقٌ كبيرٌ بين مَنْ يموتُ والقلوبُ عليه وَلْهَى، والأعين عليه باكيةٌ، والألسنة كلها تُثني عليه بالخير وتدعُو له بالرّحمة، ومَنْ يموتُ ولا تبكي عليه عينٌ، ولا يحزنُ لفراقهِ قلبٌ، ولا يترحّم عليه لسانٌ، شأن الذين عاشوا في الحياة سلبيين، أو ظالمين متجبّرين، كذلك الذي قال فيه الشاعر:

فذاك الذي إن عاش لم ينتفع به وإن مات لم تحزن عليه أقاربُه!

وكالذين قال الله فيهم: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[3].

وكثيراً ما يموتُ هؤلاء، ولا تموت معهم مظالِمُهُمْ وآثامُهُم، أو كفرُهُم وضلالُهُم، فقد وَرَّثُوهُ تلاميذَ وأتباعاً لهم، يقتفون آثارَهُمْ حِذْوَ القَذّة بالقَذّةِ فهم يزيدون في لعنتهم.

وإذا كان مَنْ سنّ سنّةً حسنةً له أجرُها وأجرُ مَنْ عملَ بها إلى يوم القيامة، فإنّ مَنْ سنّ سُنّةً سيّئةً، فعليه وُزْرُها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وهو ما ثبت عن

(١) سورة القيامة، الآية: ١٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.
(٣) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ - ٢٩.

رسول الله ﷺ[١] وإذا كان مَنْ تركَ علماً نافعاً، لم ينقطعْ عملُهُ الصّالح، فإنّه مَنْ تركَ أثراً سيّئاً، وفكراً مُضلّلاً، لم ينقطعْ عملُهُ الطّالح.

وما أنكد حظ أولئك الذين وَارَاهُمُ التّرابُ، ولم تزلْ أعمالهم الآثمة، أو أقوالهم الباطلة، أو أفكارهم الضّالّة المُضلّة المتمثلة في كتب، ومقالات أو أفلام وتمثيليات، أو شرائط ومسجلات؛ تسري وتعمل عملها في إفساد العقول والقلوب عمل النار في الهشيم.

وهذا ما جعل الصّالحين يقولون: طوبَى لمن إذا ماتَ ماتتْ معه ذُنُوبُهُ، وويلٌ لمن يموتُ وذنُوبُه باقيةٌ من بعدِهِ أولئك لهم اللّعنة ولهم سُوءُ الدّار، جهنّم يصلونها وبئسَ القرار.

البحث الرابع:

الغفلة وخطرها في حياة الإنسان

والغفلةُ مرضٌ يُصيبُ عقلَ الإنسان وقلبَهُ، بحيث يفقد الحسَّ الواعي بالأحداث، واختلاف اللّيل والنّهار، ويفقد الانتباه اليقظ إلى معاني الأشياء، وعواقل الأمور، فهو يعنى بالصّور لا بالمعاني، وبالظّواهر لا بالحقائق، وبالقشور لا باللّباب، وبالبدايات لا بالنّهايات.

والقرآن الكريم يُحذر من الغفلة أشدَّ التّحذير، حتى إنه ليجعل أهلها حطبَ جهنّم، ويجعلهم أضل سبيلاً من الأنعام العجماوات بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢].

(١) في صحيح مسلم برقم ١٠١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

ويُخاطب الرّسول ﷺ فيقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[1].

وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

ويدين القرآن أولئك الذين يهتمون بظاهر العلم دون حقيقته ولُبِّهِ، فيقول: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[3].

ومن البلية حقّاً أنْ تمرّ بأمتنا الأحداث تُزَلْزِلُ الجبالَ، فلا تعتبر ولا تتغيّر، ولا تُحرك سَوَاكِنَها، كأنّما هي مسرحية تُمثَّلُ، أو تمثيليةٍ تُؤدَّى.

ومن هنا كان من دعاء أبي بكر رضي الله عنه: «اللّهمَّ لا تدعنا في غمرةٍ، ولا تأخُذْنا على غرةٍ، ولا تجعلنا من الغافلين».

وكان سهل بن عبد اللّه يقول: احْذَرْ صحبةَ أصناف من النّاس: القرّاء - يعني العلماء - المداهنين، والمتصوفة الجاهلين والجبابرة الغافلين.

التّسويف وخطرهُ على الإنسان:

وثمّة آفةٌ أُخرى من أشدّ الآفات خطراً على انتفاع الإنسان بيومه وحاضره، وهي التّسويف والتأجيل، حتى تكاد تُصبح كلمةُ «سوفَ» شعاراً لهُ وطابعاً لسلوكهِ.

قيل لرجل من عبد القيس: أوصِنَا؟ فقال: احْذَرُوا سوفَ.

وقال آخر: سوفَ جندٌ من جُندِ إبليس! لأنها تُحبط الاجتهاد.

فمِنْ حقٍّ يومِكَ عليكَ أن تَعْمُرَهُ بالنّافع من العلم، والصّالح من العمل، ولا تسوّف إلى غدٍ، حتى يفلتَ منك حاضرُكَ فيصبحَ ماضياً ولا يعود أبداً.

فعليك أن تزرع في يومِكَ لتحصدَ في غدِكَ، وإلاّ ندمتَ حيثُ لا ينفعُ النَّدَمُ.

فما لَكَ يومُ الحَشْرِ شيءٌ سِوَى الّذي تَزَوّدْتَهُ قبلَ المَمَاتِ إلى الحَشْرِ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الروم، الآيتان: ٦، ٧.

إذا أنت لم تزرعْ وأبصرت حاصداً   ندمتَ على التّفريط في زَمنِ البذر

وقال الإمام الحسن البصري: إيّاك والتّسويف، فإنّك بيومِكَ، ولستَ بغدِكَ، فإنْ يكُنْ غدٌ لكَ، فكُن في غدٍ كما كنت في اليومِ، وإن لم يكن لكَ غدٌ لم تندم على ما فرطت في اليومِ.

آفات التّسويف في إنجاز الأعمال:

وفي التّسويف، وتأخير واجبِ اليومِ إلى الغدِ آفاتٌ.

أوّلُها: أنّك لا تضمنُ أن تعيش إلى الغد!.

دَعَا أحدُ الأمراء رجلاً صالحاً إلى الطعام، فاعتذرَ بأنّه صائم، فقال الأمير: أفْطِرْ وصُمْ غداً، قال: وهلْ تضمنُ لي أنْ أعيشَ إلى الغَدِ.

وليت شعري من يضمنُ لأحدٍ أنْ يعيش إلى غدِهِ، والموتُ يأتي بغتةً وهو يأتي بأسباب شتّى؟ وقد قال الشاعر الصّالح:

تَزوّدْ مِنَ التّقْوَى فإنّك لا تَدْرِي   إذا جَنّ ليلٌ؛ هلْ تعيشُ إلى الفجرِ
فكَمْ مِنْ سليم ماتَ من غيرِ علّةٍ   وكمْ مِن سقيم عاشَ حيناً مِنَ الدّهرِ
وكم من فتى يُمسي ويُصبح آمناً   وقد نُسجتْ أكفانُهُ وهو لا يَدْرِي

وموتُ الفجأةِ في عصرنا أكثرُ منه في أيّ عصرٍ مضى. برغم تقدّم الطّبّ والعلم، ولكن الطّبّ لم يمنعِ الموتَ بالسّكتة والذّبحة وغيرها. والعلم لم يمنع الموتَ بسببِ الحوادثِ التي لا تُحصَى كلَّ يومٍ من جراء أدوات الحضارة؛ السّيّارات والطّيّارات والآلات والأجهزة الميكانيكة والكهربائية وغيرها، بل العلم هو الذي هيّأ الموتَ بهذه الأسباب، حيث كان الإنسان قبل عصرِ الصّناعة في أمانٍ منها.

ثانياً: إنّك إنْ ضمنتَ حياتَكَ إلى الغَدِ فلا تأمَنِ المعوّقات من مرضٍ طارىءٍ، أو شُغْلٍ عارضٍ، أو بلاءٍ نازلٍ؛ ولهذا كان الحزم أن تُبادِرْ إلى فعل الخيرات، وأداء الواجبات، وكان العجز أن تسوف وتُؤجّل حتى تفوتَكَ الفرصةُ، وتشكُو من الغصّة كما قال الشاعر:

ولا أُؤَخِّرُ شُغْلَ اليومِ عَنْ كَسَلٍ إلى غدٍ إنّ يوم العاجزين غد

وقال آخر:

عليكَ بأمرِ اليومِ، لا تنتظرْ غداً فمَنْ لغدٍ من حادثٍ بكفيلِ

وقد وعظ النّبيّ ﷺ رجلاً فقال له: «**اغْتَنِمْ خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتَك قَبْل سَقَمِكَ، وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلك، وشَبَابَكَ قبل هَرَمِكَ، وغِنَاكَ قبلَ فقرِكَ**»[1]. وقال أحد العلماء لبعض الشباب: اعملْ قبلَ ألا تستطيعَ أنْ تعمل، فأنَا أبغي أن أعملَ اليومَ فلا أستطيعُ.

سبُّ الزّمان حرام:

ومن الآفات المحذورة، والسّلبيات العائقة: إلقاءُ اللوم على الدّهر، ودوام الشّكوَى، من ظلم الزمانِ، وقسوة الأيّام، حتى إنّ بعضهم ليتصوّر الزّمان أو يصورُه خصماً يضطهده، أو عدواً يتربّص به، أو حاكماً يُعاقب البريء، ويدلّل المُسيءَ، ويتحيّز لزيدٍ ضدَّ عَمْرو، بلا سبب إلّا اتّباعاً للهوى أو متصرفاً أعمى يضرب ضربات عشواء، تصيب مرة وتخطىء مرات. وهذا كلُّه من آثار النظرة الجبرية التي يُحاول الأفراد والمجتمعات أن يُبرِّئوا فيها أنفسَهُم، ويتهرّبُوا من تحمّل التّبعة عن أعمالهم وأخطائهم، وأن يُحمِّلُوا وِزْرَها لغيرهم، فيلقيها بعضُهم على بعضٍ، أو يلقوها على الزّمانِ، أو القَدَرِ، أو الحظِّ، أو الظّروفِ، أو غيرِ ذلك.

وكان الواجبُ عليهم أنْ ينظرُوا فيما نزل بهم من نقمة، وما سُلِبَ منهم من نعمةٍ، ويحللون تحليلاً أعمق من النّظر السّطحي، يربط المسببات بالأسبابِ، والنّتائج بالمقدّمات، وفقاً لِسُنَن الله تعالى في خلقهِ، فالزمنُ ليسَ إلّا وعاء للأحداث التي يجريها الله حسب نواميسِهِ وسُنَنِهِ، وهذا معنى الحديث الصحيح الذي قاله النّبيّ ﷺ: «**لا تسبُّوا الدّهْرَ فإنّ الله هُوَ الدَّهْرُ**»[2]. أي: هو واضع السُّنن ومُجْرِيها.

ولمّا انكسرَ المسلمون في أُحُدٍ، ومعهم رسول الله ﷺ واستشهدَ منهم سبعُون من

(١) الجامع الصغير برقم ١٠٧٧.
(٢) صحيح مسلم برقم ٢٢٤٦.

أبطال الصّحابة، وتساءلُوا عن سبب ما أصابهم من قَرْح وبلاءٍ؟ كان الجواب القرآني: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

والقرآن يقرر هذه القاعدة العامّة حينَ يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢).

ومن هنا كان الأَوْلَى أن يرجع النّاسُ على أنفسهم باللاّئمة، مُحاولين تقويمَ العِوَجِ، وإصلاحَ الفسَادِ، بدلَ لومِ الدّهرِ، وعيب الزمانِ، كما قال القائل:

إنّ الجَدَيدَيْنِ في طُولِ اختلافِهما ... لا يَفْسُدَانِ ولكنْ يفسدُ النّاسُ

وقال غيره:

نَعيبُ زمانَنَا والعيبُ فِيْنَا ... وما لزماننا عيبٌ سِوانَا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنبٍ ... ولو نطق الزّمان بنَا هَجَانَا

ولا يخفى أنّ بعض الشعراءِ والأُدبَاءِ يغلّفون تمرّدَهم على فساد المجتمع وجور الحكام، بالشكوى من الزّمان، وما يقصدون بالزّمانِ إلّا أهله وأصحاب السّلطان فيه، كقول أحدهم:

سألتُ زماني وهو بالجَهْل مُولَعٌ ... وبالسوءِ مزهوٌ، وبالخُبْثِ مُخْتَصُّ
فقلت له: هلْ من سبيلٍ إلى العلا؟ ... فقال: سبيلاه: الجهالة والنقص

ولهذا يحكون عن بعض جبابرة الملوك أنّه قال: الزّمانُ هو السلطان، فمَنْ سبَّ الزّمانَ فقد استوجَبَ العِقَابَ.

إنّ واجبَ المؤمن إذا نزلَ به ما يكره، أن يرجع إلى نفسهِ فيما سَبَّها، وإلى ربّه، فيقرع بابَهُ بالتّوبة والاستغفارِ. ويقول ما قالَ أبَوَاه آدَمُ وحواءُ حين أُخرِجَا مِنَ الجَنّة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

وما قاله الرّبّانيُّونَ حينَ استشهدَ منهم مَنِ اسْتَشْهَدَ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾(١) (٢).

وعلى هذا المنهج السّديد، والسّبيل الرّشيد يجبُ علينا أن نُربّي أولادَنا وناشِئتنا ومراهقينا، وفتياتِنا، فلا ندعهم يُضيِّعُون أعمارَهم بهدرِ أوقاتِهم التي هي رأسُ مالِهم في الدّراسة والتّعليم، وفي العمل والتّحصيل، فمن رُبِّي على هذا ونشأ عليه كان من أكابر أهل زمانه علماً وعملاً وفضلاً وإحساناً.

فإلى هذا المنهج السّديد والسّبيل الرّشيد ندعُوكم أيُّها الآباءُ والأولياءُ والمربُّون والمعلّمُون والمصلِحُون، لتكونَ أبحاثُهُ ماثلةً في أفكاركم وأفكار أفراد الأمّة من الأبناء والبنات، والمراهقين والمراهقات، ومن الشباب والفتيات، ومن الرجال والنساء، فنحن جميعاً بأمسّ الحاجة إلى هذه البصائر التي نقلناها عن العلماء ذوي الخبرة والدّراية والإدراك، وسطّرناها على صفحات هذا الكتاب «أصول تربية الأبناء والبنات في ضوء القرآن والسّنّة».

نسألُ الله تعالى أن ينفع بها عباده المتقين، وأن يدّخرَ لنا ثوابها ليوم الدِّين يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنُون إلّا مَنْ أتَى الله بقلبٍ سليم، والحمدُ لله ربّ العالمين.

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٧ - ١٤٨.
(٢) الوقت في حياة المسلم للدكتور القرضاوي.

الخاتمة

يقولُ رسولُ الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإِمَامُ رَاعٍ، ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمَرْأَةُ رَاعِيةٌ في بَيْتِ زَوْجِهَا ومَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، والخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سيّده ومسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، وكُلُّكُمْ رَاعٍ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ[1]».

ويقولُ رسولُ الله ﷺ: «كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ علىٰ الفِطْرَةِ، وأَبَوَاهُ بعدُ؛ يُهَوِّدَانِهِ، ويُنَصِّرَانِهِ، ويُمَجِّسَانِهِ، فإِنْ كانَا مُسْلِمَيْنِ فَمُسْلِمٌ»[2].

فهذه الفِطْرَةُ أمانةٌ في أعناقِ مسؤولِيْهَا مِنَ الآباءِ والأُمّهاتِ؛ فلا يجوزُ لمسلم أنْ يُضيّعَ هذه الأمانةَ التي هي أغلى ما في هذا الوجُودِ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[3].

وهذه الرّعايةُ التي فرضَها الله تبارك وتعالى على عبادِهِ، هي من أجلِ هذهِ الأمانةِ لحفظِها والقيامِ بحقُوقِها.

وهذا الكتاب في جميع أبحاثِهِ تفصيلٌ لبيانِ واجباتِ تلك «الرّعاية»، وحقوقِ هذه «الأمانة».

والآباءُ والأُمّهاتُ هم أهلٌ لتلك الواجبات، والأبناءُ والبناتُ هم أصحابُ حقوقِ تلكَ الأمانةِ.

---

(١) صحيح البخاري برقم ٧١٣٨، وصحيح مسلم برقم ١٨٢٩.

(٢) صحيح مسلم برقم ٢٦٥٨/ ٢٥.

(٣) سورة الرّوم، الآية: ٣٠.

والحمدُ لله الذي تتمُّ بنعمتِهِ الصّالحاتِ والبركات، والقيام بالواجبات، وتحقيقِ الطّيّبِ من الأُمنيات. . .

obeikandl.com

مصادر أبحاث الكتاب ومراجعـها

١ - **القرآن العظيم، وتفسيره:** تفسير القرطبي - وتفسير ابن كثير.

٢ - **السّنّة النّبويّة، وشرحها:** صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري، للحافظ ابن حجر.
- صحيح مسلم مع شرحه للإمام النّووي.
- سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود.
- سنن الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي.
- سنن النّسائي.
- سنن ابن ماجه.
- مسند الإمام أحمد.
- صحيح ابن حبان «الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان».
- والمستدرك للحاكم.
- ومسند أبي يعلى الموصلّي.
- والمصنف لابن أبي شيبة.
- صحيح الجامع الصغير.
- وضعيف الجامع الصغير.
- والموطأ للإمام مالك.
- وصحيح شعب الإيمان «للمؤلف».

٣ - **كتب التربية:**
- بناء البيت السّعيد في ضوء الإسلام/ للدكتور مقداد يالجن - ط دار المريخ.
- التّربية الإسلامية كيف نرغبها لأبنائنا/ للدكتور سراج محمد عبد العزيز وزان - ط رابطة العالم الإسلامي.
- تربية الأطفال في رحاب الإسلام في البيت والروضة/ محمد حامد الناصر، وخولة عبد القادر درويش - ط مكتبة السّوادي.
- تربية الأولاد في الإسلام/ عبد اللّه علوان - ط حلب.

obeikandl.com

- التربية الإسلامية وفلاسفتها/ محمد عطية الأبراشي - ط البابي الحلبي.
- تربية الطفل قبل المدرسة/ سعد مرسي أحمد، وكوثر حسين كوجك - ط الدار العربية عمان.
- التربية الإسلامية/ للدكتور أحمد فؤاد الأهواني - ط دار المعارف.
- تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس/ للدكتور محمد السيد محمد الزعبلاوي - ط مؤسسة الكتب الثقافية ومكتبة التوبة.
- رعاية الطفولة في الإسلام/ للدكتور محمد رفعت رمضان - ط دار الكتب أبو ظبي.
- الأخلاق الإسلامية وأسسها/ عبد الرحمٰن حسن حبنكة - ط دار القلم.
- صورة الطفولة في التّربية الإسلاميّة/ أحمد محمد الزبادي وإبراهيم ياسين الخطيب - ط دار المستقبل للنشر عمان.
- الطفولة في الإسلام مكانتها وأسس تربية الطفل/ محمد قطب - ط دار الشروق بيروت.
- الطفل في الشريعة الإسلامية/ للدكتور محمّد صالح - ط وزارة المعارف الرياض.
- معالم الشريعة الإسلامية/ للدكتور صبحي الصالح - ط دار العلم للملايين.
- منهج التربية النبوية للطفل/ محمد نور سويد - ط دار ابن كثير.
- الوقت في حياة المسلم/ للدكتور القرضاوي.

٤ - **كتب الفقه الإسلامي:**

المغني/ للإمام عبد اللّه بن أحمد بن قدامة المقدسي.
- القواعد في الفقه الإسلامي/ للإمام ابن رجب الحنبلي.
- المحلّى/ لابن حزم الأندلسي.
- بداية المجتهد/ للإمام ابن رشد.
- قوانين الأحكام الشرعية/ للإمام ابن جزي الغرناطي المالكي.
- موسوعة الفقه المالكي «للمؤلف» ط دار الحكمة.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام/ للإمام العزّ بن عبد السلام.
- المجموع/ للإمام محيي الدين النّووي.
- بدائع الصنائع/ للإمام الكاساني الحنفي.
- جامع أحكام الصغار/ للإمام الأسروشني.

- إحياء علوم الدين/ للإمام الغزالي.
- المفصّل في أحكام المرأة والبيت الإسلامي في الشريعة الإسلامية/ للدكتور عبد الكريم زيدان.

obeikandl.com